مقالات في فكرة التقدم
بقلم محمد الناصر النفزاوي

النـبـي مـحمـد (570-632)

و

القوتان العظميان الفارسية والبيزنطية وملحقاتهما

الفصل الرابع

هيمنـــة القـــوى الـنـــابـــذة

إن حالـــة الانهيار الروماني الشامـــل نهايــة القرن الرابع الميلادي هي التـــي تفـسر سياسة تيودوس (379- 395) الزمنية والدينية المتشددة. فقد حاول منذ أن تولى الحكم سنة 379 أن يحـد مـن تردي هذا الوضع فحافظ على التشريع في جزئي الإمبراطورية الغربي وعاصمته روما والشرقي وعاصمته بيزنطــة ولكنه وزع الحكم في الجزأين على ابنيه هونوريوس (395-423) في روما وملحقاتها الأفريقية أي تامزغا خاصة وأركاديوس (395-408) في القسطنطينية وملحقاتها الشامية المصريـــة.

هذا التشبث بوحدة التشريع في جزئي الإمبراطورية عاضده تشدد تيودوز في الحفاظ على الوحدة الدينية اذ كان هذا الإمبراطور يرى ، إما عن إيمان صادق أو عن سياسة (جريا على القاعدة التي سنها قسطنطين) أن لا حق لغير الدولة في صياغة طريقة تفكير المواطنين فأمر بهدم كل ما تشم منه رائحة الوثنية واضطهد الفرق الدينية غير الأرثوذكسية ودعا الى عقد مجمع في القسطنطينية سنة 381 لم يكتف فيه بتأكيد ما أقر في مجمع نيقية من تساوي الأب والابن بل أضاف إليهما تساوي الروح القدس ورفع من شأن أسقف القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الأولى.

إن صورة تيودوز تبدو عند كثير من المهتمين بهذه الفترة قريبة من صورة الدياني المتعصب المدفوع بدافع التقوى وحده الى اضطهاد المذاهب غير السنيـــة فهذا غوستاف لـوبون يشدد على تعصبه الديني:

" عندما أصبحت المسيحيــة الدين الرسمي في القسطنطينية أمر الإمبراطور تيودوس سنة 389 بهدم كل المعابد وأصاب آلهة مصر القديمة وكل ما يمكن أن يذكر بها" (1)

ومثل هذا التفسير يخفّف من تأثير ضغط العامل السياسي الدافع الى مثل هذه الإجراءات ويدفعنا الى التحفظ إزاءه.فقد كان تيودوس وهو يتولّى الحكم يرى ضغط الحزب القوطي الأرياني الذي ينفي ألوهية المسيح يطال البلاط الإمبراطوري ذاته حتى أن فالنس(364-378) الذي سبقه في الحكم اعتنق الأريوسية من دون أن يقيه ذلك لا من الموت بأيدي فرع منهم هو الفيزيغوط ولا من اشتداد ضغطهم على الجزء الغربي من الإمبراطورية.أما فالنتيـن الثاني (375-392)، الإمبراطور في روما ، فقد لقي مصرعه على يدي أحد جنرالاته من

الإفرنج المتسلّطين على البلاط وكان على تيودوس نفسه أن يتدخّل سنة 394 لإعادة الأمور الى نصابها.

كما أن تامزغا، أي بلاد الشمال الأفريقي التابعة لغرب الإمبراطورية الرومانية المتهاوي ، كان يعصف بها في هذه الأثناء وفي نوع من الوطنية الدينية المذهب البيليجياني الذي لم يتمكّن جدل القدّيس الأمازيغي المترومن أوغسطين ضده من الحـد من انتشاره.والبيلاجيانية باعتقادها أن الجهد الفردي ابتغاء الخلاص يتنزّل إذا ما قورن بـ"النعمى" المنزلة الأولى لا يقود في نهاية الأمر إلا الى التقليل من شأن الوسائط بين الله والإنسان ومنها الكنيسة.والتقليل من شأن الوسائط لا يعني ، سياسيا، إلا نوعا من الاستقلالية.

بهذا الفهم وحده للعلاقة بين السياسة والدين يمكن أن نفسر شدّة إجراءات تيودوس في معاملة المذاهب النابذة فهو في سلوكه لا يعدو أن يكون معبّرا عن السياسة التي سنّها قسطنطين وأفضت الى هذه التبعيّة الدينية للدولة المميّزة لما سيسمى فيما بعد بالأرثوذكسيّة والتي ما زالت الكنيسة الروسية ، خليفة بيزنطة على ما تدّعي، مثالا عليها في القرن الحادي والعشرين:

"وفعلا أعلن تيودوسيوس أن لا تسامح في الدين: إن للدولة دينا إجباريا يحدّد مقوّماته الإمبراطور ويفرضها على رعاياه. وبذلك أصبحت الأرثوذوكسية والهرطقة مادة سياسية بقدر ما هي دينية أو بالأحرى اختلطت وجهتا النظر ببعضهما البعض.وهكذا تأسس في ما يتّصل بالعلاقات بين الكنيسة والدولة المذهب الذي سيكون من ذلك الوقت فصاعدا مذهب الإمبراطورية البيزنطية والذي يطلق عليه أحيانا ، وان بتعبير غير ملائم، اسم القيصرية البابوية"(2)

ذاك هو ذوبان الدين في الدولة. وعندما اعتبر "لوميرل" أن إطلاق عبارة القيصرية-البابوية على الأرثوذوكسية في غير محله فذلك لأن "أسقف" روما لن يقبل بتوق الدولة البيزنطية الى الهيمنة على الكنيسة. وسيقود هذا الرفض الى نشأة "البابوية". إن كل جهود تيودوس للحد من انهيار الدولة شرقا وغربا ومغربا وتوحيد المواطنين دينيا ستذهب سدى اذ بلغ الداء عظام الإمبراطورية خاصة في الجزء الغربي والمغربي الأمازيغي منها.

فعلى عهد حليفته في روما هونوريوس (395-423) اضطرّ الرومان الى الجلاء عن انكلترة(407) واشتدّ ضغط الإفرنج الموريفيين على بلاد الغال ونهب ألآريك ملك الأستروغوط روما سنة 410 وسقطت اسبانيا في أيدي الفيزيغوط (410) واكتسح الوندال شمال أفريقيا وأسس جنزيريك ، أول ملوكهم (428-477)، دولة أريوسيّة تضطهد المسيحية السنيّة دامت قرنا من الزمـــان ولم تستطع حملات القديس أوغسطين الملتهبة على الهرطقات أن تمنع هذه النظريات الدينية المعادية بصفة عامة لفهم تأليهي للمسيح من التغلغل في مناطق قبائل لـــواتـــة والفراشيـــش وقبائل الأوراس النوميدية البربريـــة البعيدة عن مراكز المدن المتكتلكة كقرطاج وبونـــة وطنجـــة.

أما على عهد خليفة تيودوس في بيزنطـــة أركاديوس (395-408) وتيودوس الثاني (408-450) فقد حدث في الشام ومصر من الانقسام الديني ما يعـدّ الخطر الأريوسي الذي اجتهد تيودوس في محاربته أمرا ليس بالخطورة المزعومـــة اذ كان معتنقو الأريوسية أساسا من برابرة الجرمان. أما الانقسام الجديد فقد مـــسّ ما أصبح يمثّـــل في واقع الأمر ما تبقّى من الدولة الرومانية أي ما سمّي فيما بعد بالمشرق العربي وهو أثرى أجزاء الإمبراطورية اقتصادا وثقافة . فقد وجدت مدرستا الإسكندرية وأنطاكية في هذه الفترة الحرجة من حياة الإمبراطورية التي يصعب فيها الفصل بين ما هو هرطقة دينية ونزعة قومية انفصالية ، فرصة جديدة للصراع أثناء حكم تيودوس الثاني. هذا الصراع لم يتمثّل هذه المرة في الموقف من طبيعة المسيح (هل هي من طبيعة الأب أم لا) وإنما في كيفية اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية في شخص المسيح وذلك بمناسبة إعلان أحد بطارقة القسطنطينية المتأثرين بالمنهج الأنطاكي المشبع أرسطوطاليسية وهو نسطوريوس(428-431) عن اعتقاده أن طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية مستقلتان عن بعضهما البعض وأن الجانب الإنساني فيه غالب على ما عداه اذ ليس المسيح في نهاية الأمر إلا بشرا تحوّل إلها.

هذا الرأي اعتبره المونوفيزيون في الإسكندرية صياغة جديدة للأريوسية التي قاوموها بضراوة. وقد دعمت موقفهم من نسطوريوس إدانة أسقف روما سيليستين الأول (422-432) النظرية النسطورية سنة 428 فطالب أسقف الإسكندرية كيريلوس(**Cyrille**ت. 444)أسقف الإسكندرية نسطوريوس إما بالتراجع في ما ذهب إليه وإما بالاستقالة وبذلك فتح

الطريق لخصومة دينية سياسية لم يجد الإمبراطور تيودوس الثاني سبيلا الى تطويقها في غير الدعوة الى عقد مجمع مسكوني ثالث هو مجمع أفسس (441) للبتّ في المسألة.

إن ما يبدو قضية دينيّة فحسب ليس في الحقيقة كذلك.فالقسطنطينيّة هي عاصمة الإمبراطورية ومركز الثقل الفعلي.أمّا روما فالانهيار السياسي فيها أصبح واضحا منذ بداية القرن وستسقط روما ذاتها سنة 476 بسبب ضربات البرابرة فكان لا بد عندئذ من اجتهاد الكنيسة فيها لملء الفراغ.وأولى الخطى نحو هذا الدور الجديد هي تحقيق هيمنتها على بقية الكنائس في بيزنطة وأنطاكية والإسكندرية.أما الإسكندرية فقد نزّلها مجمع القسطنطينيّة سنة 381 المنزلة الأولى في المرتبيّة الكنسية فلا مجال ، ومنزلتها الرسمية على ما هي عليه، أن لا يكون لها رأي حاسم في المسألة خاصة أن الداعية الى المذهب الجديد هو أسقف القسطنطينيّة. إن هذا الفهم للقضية هو الذي يفسّر انعقاد ما يشبه التحالف بين هذه الكنيسة وتلك في فترة ما وانحلاله في أخرى. ففهم المسألة دينيا فحسب لا يفي بالحاجة الى الوضوح الكافي.

وعندما أدان مجمع أفسس نسطوريوس وأقاله من أسقفيّة القسطنطينيّة لم يزد القضية إلا تعقيدا.فانتصار المونوفيزية(مصر) على الأريوسية(بيزنطة)ليس انتصارا للأرثوذوكسية الرسمية في نهاية الأمر ولا هو انتصار لروما اذ أن المونوفيزيّة(حتى عندما نأخذ بالجانب الديني وحده) وهي "تلــحّ على ضرورة الغضّ من أهميّة طبيعة المسيح الإنسانية لم تعد بعيدة عن القول أن ليس في المسيح غير طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية.هذه هي المونوفيزية التي هي في بعض معانيها نقيض الهرطقتين النسطورية والأريوسية"(3).ولذلك فعندما أخذ عدد من رهبان القسطنطينية بالمونوفيزية تحوّل النزاع الى نزاع بين روما والإسكندرية: روما تندّد على لسان البابا ليون الكبير(440-461) بالمذهب المونوفيزي وأسقف الإسكندرية الجديد ديوسكوروس يشجّع عليه. ولم يجد الإمبراطور البيزنطي ، كالعادة، وسيلة للحسم في القضيّة غير الدعوة الى عقد مجمع جديد في أفسس سنة 449.

وكما حدث في المجمع السابق تمكّن المونوفيزيون من ضمان النصر لمذهبهم فاتهمهم خصومهم باستعمال وسائل أبعد ما تكون عن السلوك الأخلاقي القويم وسمّوا ما وقع في هذا المجمع "ملصة أفسس"(أي لصوصيّة أفسس) رغم أن الإمبراطور نفسه ، حرصا منه على

الاحتفاظ بولاء مواطنيه في المشرق ، زكّى ما أسفر عنه هذا المجمع. ومات تيودوس الثاني سنة 450 والنزاع الديني على أشدّه، فبادر خليفته الإمبراطور مارقيان(450-457) بالدعوة الى انعقاد مجمع مسكوني رابع في خلقدونيّة(451) حضره سفراء البابا وانتهى بنقض قرارات "ملصة أفسس" وبإقالة ديوسكوروس الاسكندري وتحرير نصّ من وحي البابا في روما يعرّف المسيح بأنه "واحد في طبيعتين" ويدين المونوفيزيّة. وإذن فانه ما أن انتصف القرن الخامس حتى تحدّدت معالم القطيعة النهائيّة بين مختلف المذاهب المسيحيّة:

- استعانت المونوفيزيّة الإسكندرية (الشرقية) في مرحلة أولى بروما (الغربية) لإدانة النسطورية (الشرقية).
- فرضت روما في مجمع خلقدونية وجهة نظرها فأدانت المونوفيزية.

وهكذا كانت الغلبة في نهاية المطاف لروما رغم انهيارها السياسي ولعاصمة الإمبراطورية البيزنطية القسطنطينيّة وانهزمت "مدارس المحيط (الإسكندرية ، أنطاكية) فزاد ذلك من تفتّتها اذ شهدت هذه الفترة بالذات داخل منطقة التأثير الأنطاكي ولادة مذهب دينيّ حول مار مارون(أي القديس مارون) في مدينـــة صور بدأ محاربا للنسطورية المونوفيزية معا وانتهى بتبنّي وجه من الكاثوليكية لن يكف ، وقد طعّمه ب"الفينيقية"، عن نصرته طيلة خمسة عشر قرنا.

ولعلّ هذا التفتّت الذي شمل المنطقة التي ستسمّى العربية فيما بعد كان واحدا من أسباب سرعة التمدّد العربي الإسلامي في القرن السابع اذ رحّبت أغلب المذاهب المسيحية غير السنيّة بالدولة العربية الإسلامية الجديدة نكالة في مضطهديها الأرثوذكس وأملا منها في أن يكون الحكم العربي الإسلامي ، ولقد كان كذلك الى حد كبير طيلة حياته التي امتدت ثلاثة قرون ، أكثر تسامحا دينيّا.

إن القول بهذا العامل الذي ساعد العرب المسلمين في مشروعهم السياسي العسكري الديني يعني في نهاية الأمر أن ما رأى فيه مارقيان انتصارا إنما كان على الأمد البعيد انتصارا للكاثوليكية وهزيمة حقيقية للأرثوذوكسية.وفعلا فان بيزنطة بعد أن خسرت مواقعها في البلقان وإنكلترا وفرنسا وايطاليا وشمال أفريقيا أصبحت مهددة داخليّا في ما تبقّى لها من نفوذ في الشام ومصر اذ رأت مدرسة الإسكندرية في ما حدث في مجمع خلقدونية أكثر من مجرّد

صراع دينيّ ظرفيّ اذ يبدو أن كنيسة مصر تخلّت في هذه الفترة عن اللغة اليونانيّة لتستعمل القبطية (4).

وفقدان مصر يعنى في الحقيقة فقد الشام اذ أن مصر منذ عهد الفراعنة (وقبل ذلك على ما نعتقد رغم فقدان المصادر)وحتى آخر تجربة سياسية سنة 1958 كانت شاميّة الاتجاه لا يتجاوز بعدها الأفريقي السودان والحبشة والصومال فهي أفريقيّة جغرافيّا شرقيّة الانتماء وحدودها الثقافية الأفريقية تشقّ ليبيا ولا تتجاوزها ولذلك كانت ليبيا وما زالت ممزّقة بين المشرق والمغرب.

إن هذا هو التفسير الذي نراه أكثر وجاهة لهيمنة المونوفيزيّة حتى في بوادي الشام رغم بعد تراث القوم عن كل تجريد وجنائزيّة.

لقد كان مارقيان وهو ينصر روما على ولاياته الشرقيّة مدفوعا بأمل واه في إمكان الحفاظ على الجزء الغربيّ من الإمبراطورية الرومانية وعلى شمال أفريقيا أي تامزغا الأمازيغية الضائع.وقد أثبتت الأيّام، بعد أن فرّط في الشام ومصر، ما كان في سياسيته من بعد عن الواقع.

كتب ديهل عن تمكّن الوندال من قرطاج وشمال أفريقيا :

" جهّزت روما والقسطنطينيّة أثناء القرن الخامس حملات قويّة كثيرة ضد المملكة الوندالية الخطيرة التي كانت أساطيلها تهدّد من دون هوادة كل شواطئ البحر المتوسّط.فعلى التوالي حاول ماجوريان **Majorien(457-461)** أحد أكثر من جلس من أواخر الأمراء على عرش روما حزما وكذلك ليون الأول إمبراطور الشرق (457-474) بعده ببضع سنوات أن يقوّض حكم جنزيريك (428-477). غير أن محاولتيهما لم تكلّلا بالنجاح. ففي سنة 460 لم يتح للأسلحة المجمّعة في موانئ اسبانيا حتى الإبحار. أما حملة 468 فقد كانت بدايتها تبشّر بالخير ولكنّها انتهت في مياه قرطاج بكارثة مشهودة ذهبت لسنوات طويلة بالأسطول البيزنطي وبماليّة إمبراطور الشرق واضطرّ زينون (474-491) خليفة ليون الأول بسبب هذا الفشل الى أن يعقد سنة 476 ،في اللحظة التي كان فيها الغرب يسقط نتيجة ضربات أودواكر **Odoacre** ،صلحا أبديّة مع جنزيريك"(5).

غير أن وهم مارقيان لم يكن سياسيا فحسب بل كان دينيّا أيضا. فروما نفسها كانت تجهد منذ بداية القرن في مقاومة هيمنة بيزنطة الدينية عليها. وما اجتهاد أوغسطين في ما يتعلق بهذه المسألة إلا مساهمة في كسر الطوق السياسي البيزنطي عليها.فـ"مملكة السماء"**La Cité de Dieu "(413-417)** كانت تسعى الى عرض تاريخ الإنسانية منذ نشأتها الى القرن الخامس.وهي لا تخضع في سعيها هذا ما يمدّها به التاريخ الوثني (الإغريقي واللاتينيّ) والعهد القديم والجديد على حدّ سواء من معطيات لمعايير عقليّة.إن غاية هذا المسعى هي اثبات وجود رهان هو وجود الله، وهو أكثر أهمية بكثير من رهان البشر المحكوم بالتقلبات التي تميز مملكة الناس . هذا الرهان الإلهي يندرج ضمن مسار جماعة المؤمنين الروحي وضمن مسار الكنيسة: إن خلق الكون والخطيئة الأصليّة والحلف الإلهي اليهودي والقربان وتأسيس الكنيسة ، كل هذه الأحداث ليست إلا مراحل ضمن هذا المسار الروحي الذي إذا كان في إمكان الإنسان أن يتبيّن فيه أثر العناية الإلهية ففي إمكانه كذلك أن يسهم فيه بما يقدّم من عمل ملائم للعقيدة تتيحه الغبطة. وإذا كان الفكر الإغريقي قد اتّخذ له من الدائريّة مثالا للزمنيّة فان أوغسطين قدّم فهما للزمن باعتباره تاريخا خطّيّا ذا بداية(ابتداء العالم) ونهاية(البعث) وأنه تاريخ الإنسانية ذاتها. هذا التاريخ اتّخذ شكل تاريخ إنسان فرد يستند الى أحداث فريدة ويتضمّن معنى أي أن له وجهة وأن له دلالة في الآن نفسه. وبهذا الفهم للزمنيّة يكون أوغسطين قد قدّم النموذج الذي ستنسج على منواله لاحقا كل فلسفات التاريخ بما فيها تلك التي تعدّ أكثر الفلسفات قولا بالمادية العلميّة (6).

إننا ، انضباطا للموضوع ،لن نتناول ما تتّصف به فكرة التقدّم الأوغسطيني من إمكانات حقيقية لتغيير نظرة الإنسان الى التاريخ ومن ثمّ الى الحياة ولكننا على العكس من ذلك نؤكد على المنزلة التي نزّل فيها أوغسطين الكنيسة بصفة خاصة والسماء بصفة عامة فلا سلطة زمنية في إمكانها أن تطال تعالي الكنيسة وتعالي السماء. وهذا يعني أن على الإمبراطور أن يشتغل بما له من صلاحيات في الجيش والاقتصاد ...وأن يترك "ما لله" لنوّاب المسيح ممثّلين في أساقفة روما.وفي ظل الفراغ السياسي في البلاد الغربيّة فان مثل هذه الدعوة لا يمكن إلا أن تقود الى تضخّم دور الكنيسة الكاثوليكية الروحي في فترة أولى في كل البلاد الغربية الخاضعة للبرابرة الجرمان الذين يشبهون ،على عكس المشارقة ، "الصفحة

البيضاء" دينيّا التي يمكن أن "تكتب فيها الكنيسة الكاثوليكيّة ما تشاء" وفي فترة لاحقة من هيمنة الكنيسة على السلطة الزمنية ذاتها.وبذلك لن يكون تاريخ البلدان الغربية اللاحق غير تاريخ سعي السلطة السياسية لاستعادة ما كان لها من شأن على عهد الرومان الوثنيين.

إن زينون **Zénon**الذي سيتسلّم الحكم عندما وصلت الإمبراطورية الى هذا الوضع الأخير سيتفطّن خطورة التفريط في بلاد الشام ومصر وسيعتنق المونوفيزيّة سعيا منه الى التقريب بين الدولة والمجتمع وسينجح الى حد ما في سعيه هذا. نقول الى حدّ ما لأن حالة الانهيار هذه كانت كأنها ملازمة لطبيعة الدولة في هذا العصر كما كانت عامة تتجاوز دولة الرومان الى دول أخرى معاصرة ومنها الدولة الساسانيّة الخصم.

وإذا كان يوجد فرق يستحق الذكر بين الأخطار التي كانت تهدّد الدولتين فهو يتمثّل في نوع الجنس الذي كان يستعدّ للانقضاض على الدولة الساسانيّة اذ هو في الحالة الساسانيّة تركيّ لموقع إيران الأسيوي القريب من الاحتياطي البشري التركي الضخم الذي كان قبل هذه الفترة وأثناءها وبعدها (وسيجرّب القرشيون ذلك طيلة حكمهم الذي دام ثلاثة قرون) يمثّل الخطر الكامن سواء على الصين والهند أو على كل الدول التي تتأسّس في الشرقين الأوسط والأدنى.

ولقد شهدت الإمبراطورية الساسانيّة بعد حكم الأباطرة الثلاثة أردشير الثاني وسابور الثالث وبهرام الرابع المتّسم بالضعف والاضطراب نهاية القرن الرابع عودة الى ما يشبه التجدّد على عهد يزدجرد الأول (399-420) الذي بلغت مواقف المؤرخين منه حد التناقض الصارخ:ففي حين يمتدح المسيحيون قراره بمنح رعاياه سنة 420 حرية المعتقد يميل المؤرّخون المسلمون ، مجاراة منهم للساسانيين المتأثّرين بقتلته من رجال الدين المجوس ،الى رسم صورة له قاتمة.

كتب عنه ابن خلدون:

" كان(يزدجرد الأثيم) فظّا غليظا كثير المكـر والخديعــة، يفرغ في ذلك عقلــه وقوّة معرفته ، وكان معجبا برأيــه، سيّء الخلق ، كثير الحدّة ، يستعظم الزلّة الصغيرة ويردّ الشفاعة من أهل بطانته ،متّهما للناس ،قليل المكافأة ، وبالجملة فهو سيء الأحوال مذموما(...)واشتدّ على الأشراف بالإهانة ، وعلى من دونهم بالقتل.وبينما هو جالس في

مجلسه يوما إذا بفرس عابر لم يطق أحد إمساكه قد وقف ببابه فقام إليه ليتولّى إمساكه بنفسه فرمحه فمات لوقته لإحدى وعشرين سنة من ملكه"(7)

إن في إمكان المرء أن يستخرج ممّا كتب ابن خلدون ، وبغضّ النظر عن الصبغة الخرافية التي تبدو في البعض منه ، إشارات إلى العداوة التي كانت طبقتا الإقطاعيين ورجال الدين تكنّانها ليزدجرد بعد أن "اشتدّ أمره على الأشراف بالإهانة ومن دونهم بالقتل"وفعلا فان هاتين الطبقتين استغلّتا فترة الضعف الفاصلــة بين حكم سابور الثاني وبداية حكم يزدجرد الأول(379-399) لتقضما صلاحيات الدولة المركزيّة وسوف يبدو عداؤهما صريحا أولا في قتل يزدجرد وثانيا في سعيهما الى الحيلولة دون تولّي ابنه بهرام غور الحكم (420-438).

فالرأي الأكثر وجاهة هو الذي يجب أن يعكس الصورة فيرى في حكم يزدجرد وابنه بهرام(أربعين سنة) فترة استعادت فيها الدولة الساسانيّة قدرا من قوّتها السابقة.ومن القرائن الدالـة على ذلك الإجماع الحاصل حول استعادة الحيرة المحميّة الساسانيّة دورها القديم على عهد النعمان الأكبر (ت 418) وابنه المنذر الأول (418-464) فإذا التحالف اللخمي-الساساني يتجاوز مجرّد الولاء السياسي الى ما يشبه العلاقة الحميمة: "يظهر ذلك في الألقاب التي منحها يزدجرد النعمان الأكبر ("مكثر بهجة يزدجرد" ، "النعمان الأكبر")على ما يقول كريستنسن وفي اختيار يزدجرد النعمان مربيا لابنه بهرام الخامس اذ نشأ هذا الملك الساساني "في بلاد الحيرة مع العرب، أسلمه أبوه إليهم فربّي بينهم وتكلّم بلغتهم" (8).وعندما قتل الأشراف الساسانيون يزدجرد واجتهدوا في تنصيب ملك على إيران من غير أبناء خصمهم القتيل قاد المنذر قوّة مكونة من الإيرانيين واللخميين هدّدت المدائن وفرضت على الأشراف الساسانيين بهرام الخامس ملكا.

ولقد سار بهرام غور سيرة أبيه في التسامح الديني إزاء الرعايا على كره من رجال الدين المجوس ، ومنح اللجوء السياسي كل الديانيين الخارجين عن أرثوذكسية بيزنطة وأشهرهم

نسطوريوس الذي التجأ بعد أن أقاله مجمع أفسس سنة 431 من منصبه الى إيران وأسّس فيها الكنيسة النسطورية.

على أنه كان على بهرام الخامس كما كان شأن أسلافه أن يتصدّى للضغط العسكري الخارجي ممثلا في البيزنطيين وتابعيهم من الأرمن المسيحيين وفي المتبربرين من الهيطل على حدوده الشرقية وكذلك في البدو من العرب الذين كانت شوكتهم تقوى بضعف الحيرة أي بضعف الدولة الساسانية. ولقد حصل بهرام الخامس في حروبه على ما طلب من عون لخميّ عربيّ ظهر خصوصا أثناء غزو المنذر أمير الحيرة الروم سنة 421 بجيش مختلط لخميّ إيراني.

وعندما مات بهرام الخامس وخلفه في الحكم يزدجرد الثاني (438-457)كانت المنطقة كلّها تشهد مخاضا ينبئ بتحولات كبيرة: فإضافة الى الصراع التقليدي بين الساسانيين والترك والروم كان جنوب الجزيرة العربية يعيش فترة هلع وهجرة جارفة نتيجة انهيار جزء من سدّ مأرب:

"في نقش يرجع تاريخه الى ما بين عامي 449-450 ما يفيد أن سدّ مأرب قد أصيب مرّتين بتلف شديد بسبب مياه الفيضان في عصر الملك الحميري (شرحبيل يعفر)ابن أبي كرب يسعد الذي كان يحكم البلاد في الفترة الواقعة بين 425-455"(9).

أما على المستوى غير العسكري والاقتصادي فقد مدّ تسامح بهرام الخامس التيّارات الدينيّة المتصارعة في إيران بنفس جديد فازداد الجدل الدينيّ انتشارا ولم يعد مقصورا على الفرق المسيحية بل تعدّاها الى جدل مسيحي- مزديّ.

يورد كريستنسن في هذا السياق جدلا دينيّا بين أتباع زرادشت والمسيحيين فيؤكد الأوّلون:

"أن النصارى على خطا عندما ينسبون الخير والشرّ الى إرادة واحدة وعندما يؤكّدون أن الله غيور وأنه خلق الموت وأدان الناس لا لسبب إلا لأنّ تينة واحدة سقطت من شجرة. إن غيرة كهذه لا توجد بين البشر فكيف يمكن أن تكون بين الله والإنسان؟.ومن أخطائهم(أي المسيحيين)كذلك أن الله الذي خلق السماء والأرض حلّ بالأرض وولد من عذراء تسمّى مريم بعد أن كانت زوج رجل يسمّى يوسف فالمسيح إنما هو في الحقيقة ابن لـ(فانتور) ولد اثر علاقة زنا. ثمّ إن رؤساء النصارى الروحيين يقولون إن أكل اللحم لا يعدّ إثما وهم مع

ذلك يعرضون عن أكله ويقولون إن الزواج مباح وهم مع ذلك يعرضون عن النظر الى النساء ويقولون إن من يجمع الكنوز يرتكب إثما ويشيدون غاية الإشادة بالفقر.هم يتغنّون بالمحن ويغضون من الازدهار.هم يزدرون الثروة ويفضّلون الأشياء المبتذلة على الأشياء الثمينة. هم يمتدحون الموت ويحتقرون الحياة.هم يستنكرون ولادة الأطفال ويتحسّرون على العقم"(10).

أما المسيحيون فيردّون على الزرادشتيين:

" إننا لا نعبد مثلما هو شأنكم العناصر والشمس والقمر والرياح والنار، ولا نقدّم قرابين لكلّ هذه الآلهة التي تذكرون في الأرض والسماء ، فنحن، وهذا هو ما تعلّمنا ، نعبد في ثبات الاها واحدا حقيقيّا خلق السماوات والأرض وما تحتويان" (11)

إن التناقض واضح بين الديانتين: ديانة تضرب عروقها في الأرض لأنها ظهرت في حضارة حاكمين هيمنوا على العالم القديم زمنا طويلا وديانة تدعو الى قطع الصلة بالأرض لأنها ظهرت عند مضطهدين أصبح الانكفاء النفسي والعقلي ديدنهم.

إن المآخذ على المسيحية قريبة من المآخذ على النبيّ ماني(وكذلك على النبيّ الذي سيظهر بعد بعض العقود:مزدك) الذي قتل لأن في دعوته تهديدا للمجتمع الساساني القائم الذي تحتفل زرادشتيته بالجسد والأرض والولادة والخصب وتعادي أيّما معاداة كل مظاهر الزهد والتصوف والتشاؤم.ولذلك يمكن تكرار القول إن دعوة الشاعر:

لـــدوا للمـوت وابنوا للخــراب

ليست من الزرادشتيّة (المجوسية) في شيء اذ عناصرها مانوية مسيحية.كما يمكن القول إن من أسباب ترحيب الساسانيين بالنسطوريّة تغليب هذا المذهب طبيعة المسيح البشرية على ما عداها ورفضه القول إن العذراء أم الله اذ هي أم عيسى فحسب بل يمكن القول إن "طبيعيّة" الزرادشتيّة هي التي تفسّر احتفاء كثير من المفكرين الغربيين بها زمن هيمنة الوضعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة على جزء غير قليل من البلاد الأوربية الغربية.

لقد رأى يزدجرد الثاني في اتجاه الجدل هذه الوجهة المحاربة للدين الرسمي الساساني خطرا إضافيا على الدولة فعمد الى اتخاذ إجراءات ضدّ المسيحيين وحتى اليهود المقيمين في بلده والذين سيشهد هذا القرن والقرن الذي يليه اكتمال نشاطهم الموسوعي لبلورة أساس تراثهم

الثقافي ممثّلا في تـلـمود بابل ذي العشرين جزءا والذي يعتبر مع تلمود القدس الذي يصغره حجما دائرة معارف الثقافة العبرية التقليديّة (12).

إن سلوك يزدجرد الثاني الديني يبدو في نظرنا صادرا عن نظرة سياسية لا عن ردّة فعل نفسية أو دينية كما يذهب الى ذلك عدد ممن أخذوا بفكرة أن العامل النفسي هو الحكم في سياسة الشرقيين (وأين تقف حدود الشرق ؟) وأن العامل العقلي (والى أي حدّ يمكن فصل العقلي عن النفسي ؟) هو الحكم في سياسة المنتمين الى الحضارة اليونانية الرومانية.

إن هذه الفترة التي رأينا عددا من ملامح الصراع الديني فيها كانت تحمل في طياتها أكبر خطر هدّد الدولة الساسانية في هذا القرن تماما كما هدّدت المانوية الدولة في القرن الثالث وهو الخطر المزدكي الذي سيتجلّى في عهد خلفائه وسيمتدّ حتى الثلث الأول من القرن السادس. وإذا كان يزدجرد قد تمكّن من الحدّ من النزيف أثناء فترة حكمه فان خلفاءه هرمز الثالث (457-459)وفيروز الأول(459-484)وولاش(484-488) سيغرقون في أزمـة انتهت بكارثة حقيقية على البلاد فأصبحت تابعة للترك مستسلمة للبيزنطيين على ضعفهم فاقدة لكل سيطرة على العرب البدو في بلاد الرافدين والخليج بل ستسقط محميتهم الحيرة في أيدي الكنديين الحضرميين، هؤلاء العرب الجنوبيين الذين لا يمثلون غير جزء صغير من الجماعات البشريـة الهائلـة بمقياس تلك الفترة التي دفعها انهيار الوضع الاقتصادي جنوب الجزيرة الذي اختزلته الروايات القديمة في تصدّع بعض الأجزاء من سـدّ مأرب والضغط الحبشي معا الى البحث عن مجال حيويّ في مناطق الخصب الشمالية تماما كما يدفع اليوم ظهور النفط في الخليج والسعودية الى هجرة اليمنيين نحو هذه البلاد.

إن وضعا كهذا يتطلّب رجال حكم على مستوى عال من الكفاءة للحدّ على الأقل من انهيار الدولة ولم يكن خلفاء يزدجرد كذلك:فما أن مات الشاهنشاه حتى اندلعت الحرب بين ابنيه هرمز الثالث وفيروز وانقسم المجتمع الإيراني بين مؤيّد لهذا ومؤيّد لذاك ومالت الكنيسة المجوسية ذاتها الى فيروز في حين اضطلعت أمهما بالحكم في المدائن طيلة هذه الحرب الأهليّة التي انتهت بأسر فيروز أخاه ثم قتله والانفراد بالحكم.ولقد تعاقبت على الإمبراطورية الساسانية أثناء حكم فيروز الخطوب:

- حدود شمالية وشرقية مهددة بالغزو التركي

- جفاف طويل نتجت عنه مجاعات طالت مناطق شاسعة في الإمبراطورية
- تكاثر حالات التنصّر في الطبقات العليا من المجتمع

إن الصورة التي كانت عليها القوتان العظميان في الثلث الأخير من القرن الخامس هي صورة انهيار شامل.ولم تكن قد توافرت هذه المرة أيضا الظروف الملائمة لظهور دولة جديدة تحلّ محلّ دول العالم القديم المنهار.فكان لا بدّ من انتظار قرن كامل ونصف القرن حتى يحدث ذلك مع النبي محمد أي مع الدولة العربية الإسلامية.

G.Lebon, La Civilisation des Arabes, p.156

.P.Lemerle, Histoire de Byzance, p.38

المرجع السابق، ص 38

المرجع السابق، ص 41 ونلاحظ هنا العلاقة بين قبط و **E -gypte**

5)الفراعنة:تطلق في مصر القديمة على قصر الملك عبارة "الدار الكبرى" التي تسمّى بالمصرية **paràa** والتي تحوّلت بتأثير الإغريقية الى "فرعون" الذي أصبح اسما فضفاضا يدخل ضمنه كل ملك مصري سواء أكان مينس من السلالة الأولى (2900ق.م) أم كان على سبيل المثال رمسيس الثاني الشهير(1235-1298 ق.م) معاصر الزعيم اليهودي موسى. انظر الصفحة 175 من كتاب:**Etienne Drioton et Jacques Vandier, L'Egypte des origines à la conquête d'Alexandre , Paris, 7 ed.1989** كما تجدر الإشارة الى أن الأمثلة على الخلط بين الأعلام والألقاب والصفات كثيرة في كتب التاريخ القديمة ومن ذلك ذكر قيصر على أنه علم وذكر بحيرا والحال أن بحيرا تعني الراهب بالسريانية.

Charles Diehl, L'Afrique byzantique, vol.1, s .d., p.4

François Châtelet et autres, Histoire des idées politiques, 1982, p.18

ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 3، ص 353

ابن خلدون، المرجع السابق ن ص 353

النجار، علاقة ، صص 13-14

كريستنسن ، إيران ، ص 282

كريستنسن، المرجع السابق، ص 218.

André Chouraqui, Histoire du Judaïsme, Paris, Puf, 1968, p.41.